بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، الذى دعا الناس إلى العلم والتعلم، وقال فى كتابه الكريم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ (فاطر: ٢٨).

والصلاة والسلام على الرسول الصادق الأمين، الذى علم الأمة، وبين للإنسانية طريق الرشاد.

أما بعد...

فإن علماء الأمة الإسلامية ــ انطلاقًا من دعوة القرآن إلى العلم ــ تعلموا، وبحثوا، وصنفوا، وتركوا لأجيال الأمة مصنفات هى ذخائر حية.

ومن أبرز الذخائر ما جاء فى علم الكلام، الذى برز فيه العلماء فى وقت اشتدت الحاجة إليه، حين كانت المناظرات، ومجالس العلم، مع أصحاب الملل والنحل.

والتقليل من شَأن علم الكلام فى أى وقت، دليل عجز، وجهل، وتعصب، لأن احترام علوم نبغ فيها علماء الأمة فى وقت الازدهار الحضارى، والفكرى، والعقلى لمن الحياة.

واحترام علماء الأمة وأئمة هذه العلوم، ضرورة حياتية، لا يقدرها إلاّ الأحياء الذين يريدون لمجتمعاتهم الحركة والحياة.

وقد نختلف مع هؤلاء العلماء فى بعض ما ذهبوا إليه، ولكن ليس معنى ذلك أن ننكر جهودهم واجتهادهم ودورهم.

وقد يكون المنكرون لعلم الكلام، ولعلمائه على صواب فيما يذهبون إليه فى بعض القضايا، ولكن ليس من الكياسة أن يظل هؤلاء يرددون ليل نهار، هذا الإنكار، ويصبحون ويمسون، وليس لهم إلا مواجهة علم الكلام، وهم أعجز من أن ينالوا منه.

إن الذين يبحثون فى نقد قضايا علم الكلام. هم فى الحقيقة يعملون على نشر علم الكلام وكتبه من حيث لا يدرون.

ولذلك نجد كثيرًا من الباحثين والدارسين فى الجامعات يجهدون أنفسهم فى الحصول على كتب علم الكلام القديمة، وأصبح لهذه الكتب ـــ فى ظل تطورات فكرية لها ـــ سوق رائجة.

وقد يكون واضحًا أن تواجد الكتب، ونقد العلماء معلم من معالم الصحة والعافية فى الأمة، ما لم يتحول إلى معول هدم، كما هو الحال عند أصحاب المذاهب المبتدعة التى أفرخها شياطين الإنس لتنال من كل العلماء ومن كل العلوم، ولا ترضى إلا بمذهبها هى، وبعلمائها هى.

ومن الغريب الذى يدلك على جهل هؤلاء: أن هؤلاء الجهال، يصور لهم جهلهم: أنهم هم على حق، وأن ما عداهم من المسلمين، ومن مذاهب الأمة، على غير ذلك.

وهذه ظاهرة هدم تشير إلى ما ينبغى على علماء الأمة من مواجهة لهذه الأفكار الظلامية الجامدة، التى ما جاءت إلا لتؤخر مسيرة الأمة، وتشيع فى مجتمعات المسلمين والإنسانية البلبلة، والقلق، والاضطراب، والفوضى.

ومما يلاحظ: أن بعض كتب التراث حين تحقق وتطبع تتعرض للمسخ والحذف، لما قد يكون فيها من مواد لا يرضاها هؤلاء المتنطعون.

وقد ذكر لى عالم جليل من علماء النشر، ما يحدث لبعض الكتب المحققة، حيث لا يصرح بطبعها ونشرها إلا إذا تم حذف ما يتصل بعلم الكلام والتصوف، والصوفية.

وهذا يمثل خطورة ضارة بالتراث الإسلامى الأصيل، وتلك كارثة لا يمكن قبولها، إلا عند هؤلاء المرضى لأنهم لا يحسون، ولا يشعرون، ولا يفهمون، ولا يدركون.

ويوم أن كانت الأمة الإسلامية تدرك هذه القيم قيم علم الكلام، كان لها شأنها واعتبارها، إلا أن الأمة عاشت ألوانًا من الصراع حال دون وحدتها بصورة فاعلة وبانية، مما كان سببًا فى أن تعدو عليها أمم تتربص بها، تريد الهيمنة عليها، ومنعها من أن تظل قوة تعلى كلمة الحق فى دنيا الناس.

وتمثلت بعض ألوان الصراع فى التعصب المذهبى الأعمى الذى فرق المسلمين إلى طوائف على الرغم من وحدة الأصول بين المذاهب الكلامية والفقهية، وأن الاختلاف بينها اختلاف فى مسائل فرعية، وقضايا جزئية، وهو اختلاف لا ينبغى أن تتمخض عنه خصومات وصراعات، لأنه فى جوهره مظهر من مظاهر الحرية الفكرية فى الإسلام، وآية من آيات صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان.

وقد يكون واضحًا أن الأمة الإسلامية ــ وإن اختلفت فيها المدارس الفكرية ــ تملك أسسًا مشتركة تستطيع بها أن تجمع شتاتها، وتوحد كلمتها فهى أمة واحدة، ذات دين واحد، وكتاب واحد، ورسول واحد.

هذه الأصول الثابتة التى تشترك فيها الأمة، فإذا أدركتها جيدًا، والتزمت بمقتضياتها، فإن ذلك يجعل منها أمة واحدة، تلتقى على وحدة الغاية، ووحدة المنهج، ووحدة القيادة، ووحدة العقيدة.

ولا بأس من تناول هذه الأسس بإيجاز لتتضح المعالم المضيئة فى الطريق:

١ – وحدة الغاية: حيث إن المسلمين جميعًا يدركون غاية وجودهم فى هذه الحياة، وهى الطاعة الكاملة لله عز وجل، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦) وإدراك هذه الغاية أساس أصيل فى وحدة المسلمين.

٢ – وحدة المنهج: وهذا المنهج الذى يجب اتباعه هو ما أشارت إليه الآيات الكريمة: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ (آل عمران: ١٠٣) وليس لهذا المنهج إلا مصدر واحد وهو الله سبحانه وتعالى، فهو الذى وضعه للمسلمين، فإذا اتضحت هذه الحقيقة فى أذهان المسلمين، وأشرقت فى قلوبهم المؤمنة، تمثلوها فى واقعهم وسلوكهم.

٣ – وحدة القيادة: لقد شاء الله أن يكون الإسلام آخر الرسالات السماوية فى الأرض، وأن يكون محمد ﷺ آخر الرسل، فبه أكمل الله الدين، وبه ختم المرسلين، وهذه الحقيقة يجب أن تتضح فى أذهان المسلمين، إذ بقدر وضوحها والتزامهم بها، يتيسر للأمة الاجتماع.

٤ – وحدة العقيدة: فالعقيدة هى الأساس الذى يرتفع عليه بناء الدين، فإذا قوى الأساس سهل على الأمة تصحيح أوضاعها، وأمكن لها الاجتماع واللقاء،

وحين تكون العقيدة واضحة فى الأذهان مشرقة فى القلوب تزول الحواجز التى قامت بين الأمة.

فالحق كل الحق، أنه لا ضرر على المسلمين فى أن يختلفوا، فإن الاختلاف سنة من سنن الاجتماع، ولكن الضرر فى أن يفضى بهم الخلاف إلى القطيعة والخروج على مقتضى الأخوة التى أثبتها الله فى كتابه العزيز، لا على أنها شىء يؤمر به المؤمنون، ولكن على أنها حقيقة واقعة رضى الناس أم أبوا ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الحجرات: ١٠).

فالخلاف فيما يتعلق بالعقائد، لم يتجاوز الحد النظرى، ولا الاتجاه الفكرى، فإن العلماء الذين تصدوا لهذا لم يجر بينهم خلاف أدى إلى امتشاق الحسام، وطبيعة حياتهم العلمية لا تسمح لهم بأن ينقلوا الخلاف من ميدان القول إلى ميدان العمل، ولم يكن الاختلاف النظرى ليصل فى حدته إلى أن يجعلوه عمليًّا، ولم تظهر الحدة إلا فى أن يحكم كل واحد على الآخرين بالخطأ والابتداع.

ومهما يكن مقدار الخلاف النظرى فى العلوم الاعتقادية، فإنه لم يمس لب الإسلام، ولم يكن الاختلاف فيما علم من الدين بطريق قطعى، لا شك فيه، أو فى أصل من أصوله التى لا مجال لإنكارها، والتى تعد من أركان الإسلام التى يقوم عليها بناؤه..

فالخلاف حول أوائل المقالات أو المعارف الكلامية، يجرى حول معارف إسلامية، تبلور كثيرًا من الحقائق، وتصقل العقول والأفهام، وتحدث باحتكاكها، وميضًا يكشف سبل البحث، وطرائق الاستدلال، تلك هى مذاهب الإسلام الكلامية، وهى فى باطنها تشير إلى الوحدة لا إلى الفرقة، وتنبئ عن الاجتماع، لا عن التشتت.

فلم يكن الاختلاف فى وحدانية الله تعالى، وشهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ، ولا فى أن القرآن نزل من عند الله العلى القدير، وأنه معجزة النبى الكبرى، ولا فى أنه يروى بطريق متواتر، نقلته الأجيال الإسلامية كلها جيلاً بعد جيل، ولا فى أصول الفرائض كالصلوات الخمس والزكاة والحج والصوم، ولا فى طريق أداء هذه التكليفات..

وبعبارة عامة: لم يكن الخلاف فى ركن من أركان الإسلام، ولا فى أمر علم من الدين بالضرورة، كتحريم الخمر، والخنزير، وأكل الميتة، والقواعد العامة للميراث.. وإنما الاختلاف فى أمور لا تمس الأركان، ولا الأصول العامة.

إن هذه الخلافات فى جوهرها تنبئ عن معنى الوفاق، فهى ترتبط بأصل واحد وهو الكتاب والسنة، ومدارس الفكر المختلفة داخل الإسلام، شىء طبعى، مرغوب فيه، ليس منه بد، ما دام الإسلام دينًا حيًّا لأحياء، لكى يزدادوا حياة.

والإسلام نفسه شحنة هائلة من النشاط العقلى، تأبى أن يتحول المسلمون إلى مجرد نسخ متطابقة، تتكرر باستمرار، وبلا اختلاف، من عقل واحد، أيًّا كان هذا العقل، حتى لا يهلك المسلمون من الإجداب، والرتابة، والركود، والشعور بالقدم..

وليس يرضى الإسلام أن تلد الأمهات المسلمات إمعات مكررة معتمة، وإنما يرضيه ويعليه إنجاب العقول اليقظة النشطة..

وبكل تأكيد ستظل المذاهب الكلامية، ومدارس الفكر فى الإسلام، توجد ما بقى للمسلمين حاجة إلى التعبير عن تراثهم العقلى، والروحى، وإلى استدامة الصلة بين أصول دينهم، وبين واقع الحياة، وليس من مصلحة الإسلام والمسلمين كبت النشاط العقلى والروحى داخل الإسلام، لأن من أجلّ ما يقدمه المسلم لدينه: أن يفكر فيه ويشعر به.

والإسلام يضعف ويصبح تراثًا جامدًا محنطًا إذا لم يفكر فيه ويشعر به إلا الحمقى والجهلاء..

إذن لا بد أن نعى دور العقل الإسلامى، ومن أوضح سمات القرآن الكريم التى لفتت نظر الباحثين، هى الإشادة بالعقل، وتوجيه النظر إلى استخدامه، فيما يفيد، وينفع، فدعا القرآن بطريق مباشر وغير مباشر، إلى تقدير العقل والرجوع إليه، فيما اختص به من تفكير.

ويحرص القرآن على تأكيد هذا المعنى، حتى إنه ليكرر هذا فى الدعوة بشكل يلفت النظر، ويثير الاهتمام من التفكر، والنظر، والتدبر، والحكمة، والتذكر، والعلم، والفقه، والرشد، والبصر.. إلى غير ذلك من الألفاظ التى تدور حول

الوظائف العقلية على اختلاف معانيها، وخصائصها، وظلالها، مما يعتبر إيحاءات قوية، بدور العقل وأهميته.

والقرآن الكريم لا يذكر العقل إلا فى مقام التعظيم، والتنبيه إلى وجوب العمل به، ولا تأتى الإشارة إليه عارضة، ولا مقتضبة فى سياق الآية، بل هى تأتى فى كل موضع من مواضعها، مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة.

ولا يأتى تكرار الإشارة إلى العقل بمعنى واحد من معانيه، بل هى تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها، وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص فى مواطن الخطاب ومناسباته.

فلا ينحصر خطاب العقل منها فى العقل الوازع، ولا فى العقل المدرك، ولا فى العقل الذى يناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح، بل يضم الخطاب فى الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن الإنسانى من خاصة أو وظيفة..

ومن خصائص العقل أنه ملكة الإدراك التى يناط بها الفهم والتصور.

ومن خصائص العقل أيضًا أنه يتأمل فيما يدركه ويقلبه على وجوهه، ويستخرج منه بواطنه وأسراره، ويبنى عليها نتائجه وأحكامه، وهذه الخصائص فى جملتها تجمعها ملكة (الحكيم).

ومن أعلى خصائص العقل الإنسانى (الرشد) وهو مقابل لتمام التكوين فى العقل الرشيد..

وفريضة التفكير فى القرآن الكريم تشمل العقل الإنسانى بكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها ومدلولاتها، لأن الكتاب الذى ميز الإنسان بخاصة التكليف هو الكتاب الذى امتلأ بخطاب العقل بكل ملكة من ملكاته، وكل وظيفة عرفها له العقلاء والمتعقلون.

والعقل الذى يخاطبه الإسلام هو العقل الذى يدرك الحقائق، ويوازن بين الأضداد، ويتبصر ويتدبر، فالإسلام هو الدين الذى أعلى من شأن العقل وعده أداة صالحة لتعرف الحقائق، وفى رأسها الإيمان بالله وقدرته، ووحدانيته، وهو الدين الذى طلب من الإنسان، أن ينطلق إلى الإيمان من الدليل والبرهان.

ولذلك دعا إلى إعمال العقل والتفكير به، وذم الذين يهملون عقولهم، ويعطلون نعمة الله فيهم، ويلوذون بتبعية أو تقليد، من غير تفكير، ولا نظر، وإنك لتجد ذلك واضحًا في الأمور التالية:

أولاً: لقد طلب القرآن الكريم من الإنسان أن يفكر فيما يدعى إليه، إما منفردًا بنفسه، وإما مجتمعًا مع أناس آخرين، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (سبأ: ٤٦).

ثانيًا: لقد امتدح القرآن الكريم المفكرين ووصفهم بأنهم هم أرباب العقول، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (آل عمران: ١٩٠، ١٩١).

ثالثًا: لقد عد القرآن الكريم الذين لا يفكرون فيما يلقى إليهم ولا يعملون فيه عقولهم، عدهم كالبهائم، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٧١) وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

رابعًا: لقد ذم القرآن الكريم التقليد الأعمى، وهو أن تتبع غيرك من غير وعي، ولا تفكير، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٠).

خامسًا: لقد نهى القرآن الكريم الإنسان أن يتبع شيئًا ويؤمن به، من غير أن يكون له على صحته دليل ساطع، وبرهان مقنع، يصل إلى درجة العلم واليقين، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ (الإسراء: ٣٦).

ولما كان العقل له فى الإسلام هذه العناية الفائقة من التقدير، فقد اتخذ له الإسلام منهجًا فريدًا فى تحريره، ليظل العقل عاقلاً، والفكر راشدًا، وهذا المنهج يقوم على دعامتين أساسيتين، من شأنهما حراسة العقل، وترشيد الفكر.

- وأول دعائم المنهج الإسلامى فى تحرير العقل، هو تحرير الإنسان من أغلال الحجر العقلى، وسيطرة التبعية العمياء، حتى يقوم العقل على حرية الفكر، واستقلال الإرادة، ليكمل بذلك العقل، ويستقيم التفكير.

- الدعامة الثانية فى المنهج الإسلامى، هى تحرير الإنسان من أصفاد الجهل وظلمته، لأن الجهل يقتل مواهب الفكر، والنظر، ويطفئ نور القلوب، ويعمى البصائر، ويميت عناصر الحياة والقوة فى الأفراد والجماعات، والأمم، ويفسد على الناس مناهج الاستقامة.

فالمنهج العقلى كتيار فكرى، ومنهج عقلى، كان لا بد من ظهوره، وذلك لمجابهة التحديات الفكرية التى لاقاها الإسلام عندما امتد سلطانه، وعندما اشتد الصراع الفكرى بينه وبين أصحاب الأديان الأخرى، من يهود، ونصارى، ومانويين، وزرادشتيين، وصابئة، ودهريين.

لقد فتح الإسلام كقوة سياسية أرض الديانات القديمة، وأثبت كيانه فيها، إلا أن الإسلام كتصور روحى خاص استمر يناضل فكريًا أهل الأديان، والعقائد المختلفة، لمدة طويلة.

اشتبك خلالها المخلصون ــ أصحاب العقليات ــ فى حرب ضروس مع أصحاب الأهواء والبدع من الزنادقة والدهرية، والمشبهة، والحلولية، مثلوا فيها معارضة فكرية قوية، صانوا فيها البناء الروحى والفكرى للإسلام من خطر تلك الآراء التى أرادت أن تشوه صفاء العقيدة الإسلامية.

والأمة الإسلامية فى (عقلانيتها) التى انطلقت من دعوة القرآن، لم ترفض الوحى، ولم تتنكر للنص المأثور، وأيضًا فهى لم تقف لتتعبد بالنص المأثور دون وعى، وإنما وازنت بين العقل والنقل، ووقفت بين الحكمة والشريعة، وحكمت العقل، ولجأت إلى التأويل عندما لاح التعارض بين ظواهر النصوص، وبين براهين العقل.

فليس من مصلحة المسلم ترك الضحالة، والمحاكاة، والرتابة، والألية، تطمر أعماقه، وتأكل إرادته.

ولا بد أن ندرك أن الخلاف، والاختلاف ضرورى، لأن ورود المتشابه فى القرآن الكريم كما فى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران: ٧) كان سببًا فى اختلاف العلماء، فى مواضع المتشابهات من القرآن الكريم، وحاول كثيرون من ذوى الأفهام تأويله، والوصول إلى إدراك حقيقة معناه، فاختلفوا فى التأويل اختلافا بينًا.

لأنهم لم يقنعوا بالإيمان بالمتشابهات جملة من غير تفصيل، فجمعوا الآيات التى قد يظهر بينها خلاف، وسلطوا عليها عقولهم، فأداهم النظر فى كل مسألة إلى رأى فإذا وصلوا إليه، عمدوا إلى الآيات التى يظهر لهم أنها تخالف الأولى، فأولوها فكان التأويل طريقًا من طرق النظر العقلى.

وطبعى أن هذا المنحى فى التأويل، وإعطاء العقل حريته فى البحث والنظر يستلزم تعدد المذاهب.

ويقول ابن خلدون: «إنه توجد فى القرآن آيات متشابهة، يلتبس معناها على القارئ، ولذلك نشأ خلاف فى تفاصيل العقائد، أكثر مثارها من الآيات المتشابهة، فدعا ذلك إلى الخصام، والتناظر، والاستدلال بالعقل.

فالعلماء لم يختلفوا على تنزيل القرآن، وإنما اختلفوا على تأويله، أى أنهم ــ كما يقول الزمخشرى ــ متفقون على نصه، ولكنهم مختلفون فى تفسيره.

فالقرآن فيه محكم ومتشابه، ولو كان القرآن كله محكمًا لتعلق الناس به لسهولة مأخذه، ولأعرضوا عما يحتاجونه فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال، ولارتكنوا إلى طريقة التقليد.

إن وجود متشابه الآيات أدعى إلى أن يشحذوا الفكر للاستنباط، ويكدوا فى معرفة الحق خواطرهم، وإتعابهم القرائح فى استخراج معانيه، وما فى رد الآيات المتشابهة إلى المحكم من الفوائد الجليلة، ونيل الدرجات عند الله».

ويعلق الدكتور أحمد محمود صبحى على ما ذكره الزمخشرى فيقول: وهكذا ألمح الزمخشرى إلى عامل من أهم عوامل ازدهار الحضارة الإسلامية عقب قيام الإسلام إذ ألزم القرآن المسلمين بما غمض من معانى آياته وبمحكمه ومتشابهه: البحث، والنظر، والتفكير، والاستنباط.

ولو كان سهل المأخذ، يسير الفهم، لكانت السطحية التى تغرى بالتقليد والجمود، فالاختلاف قرين حرية الرأى والتفكير.

والتأويل ـــ كمنهج عقلى يقصد منه إبعاد التصورات التى لا تليق بالألوهية وكوسيلة للتقريب، والتوفيق بين العقائد الدينية التى تثبت بالوحى وبمقتضيات العقل ـــ ظاهرة دينية.

والتأويل كمنهج عقلى يرتبط تاريخيًّا بالمعتزلة الذين أيقنوا من أن إبعاد التصورات والصفات والأحوال التى لا تتفق وطبيعة الألوهية لا يكون إلا عن طريق تأويلها مجازيًّا.

فقد وجدوا فى القرآن الكريم، والحديث النبوى نصوصًا إذا أخذت حرفيًّا، أدت إلى التشبيه والتجسيم وما يكون من ذلك من الصفات والعواطف والإحساسات البشرية، وإذا ثبت عندهم بالدليل العقلى أن الله تعالى منـــزه عن الجسمية والجهة، قالوا: لا بد من صرف هذه الصفات عن معانيها الظاهرة الحرفية إلى معان أخرى مجازية لئلا يكون ذلك سببًا فى الطعن فى هذه النصوص.

واستعانوا فى هذه السبل الوعرة والشاقة، بالقرآن نفسه فى آيات أخر، وبلغة القرآن يجدون فيها ما يساعدهم فى تقرير المعانى التى يرونها.

والباحث فى كتب التفاسير والفرق: يجد أن المعتزلة لم يأتوا بما أتوا به من صرف آيات الصفات عن معانيها الظاهرية الحرفية إلى معان أخر مجازية من فراغ، وإنما مهد لهم رجال من السلف ـــ عاشوا فى القرن الأول الهجرى ـــ أمثال (مجاهد المكى) وعطية الكوفى أو العوفى، وغيرهما من رجال السلف.

فقد قاموا بمحاولات فكرية لتفسير المتشابهات تفسيرًا مجازيًّا له مبرراته فى اشتقاقات اللغة العربية وأصولها.

يروى عن مجاهد المكى المحدث والمفسر المشهور: أنه كان من أوائل من قرأ الآية الكريمة: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ (آل عمران: ٧) من غير توقف، فاتحًا بذلك باب التأويل لمن جاء بعده.

أما المعتزلة فقد جاهدوا من أجل جعل التأويل المجازى منهجًا عامًّا منسقًا لأنهم أدركوا ـــ كما أدرك غيرهم من علماء الكلام فى الأديان الأخرى ـــ أنه لا سبيل للقضاء على التشبيه كفكرة، إلا إذا صرفت الصفات الخبرية الواردة فى المتشابهات، عن ظواهرها إلى معان أخرى مجازية مستساغة، من غير إخلال بقواعد اللغة العربية وخصائصها.

ويذكر العلماء: أنه رغم ما فى التأويل الاعتزالى أحيانًا من تعسف وإفراط، ومحاولات لجعل النص القرآنى دليلاً على صحة آرائهم الدينية، والمذهبية، التى آمنوا بها، إلا أن العمل الذى بدءوه كان السلاح الوحيد للقضاء على التشبيه والمشبهة.

وقد أخذ به ـــ مع تعديلات وإضافات ـــ عامة المسلمين من شيعة وأهل سنة، ماتريدية وأشاعرة، وفى ذلك يقول الإمام الرازى: جميع فرق الإسلام يقرون بأنه لا بد من التأويل فى بعض ظواهر القرآن والأخبار.

والباحث فى أعماق التراث الإسلامى الأول، يجد أن مشكلة التشبيه ظهرت فى الفكر، فى نهاية القرن الأول الهجرى، وسبب ظهور المشكلة يعود إلى سبب داخلى، ومن ذات الإسلام نفسه، لوجود مجموعات من الآيات والأحاديث تضيف إليه تعالى، صفات خبرية، تشير إذا فسرت حرفيًّا إلى التشبيه والتجسيم، وما يكون من ذلك من الصفات والعواطف والإحساسات البشرية، والآيات والأحاديث التى ورد فيها ذكر الصفات الخبرية مثل: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (الفتح: ١٠) ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ (المائدة: ٦٤) ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ (ص: ٧٥) ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ (الزمر: ٦٧).

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (القلم: ٤٢) ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ (القيامة: ٢٩، ٣٠).

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن: ٢٦، ٢٧) و ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ (البقرة: ١١٥) و ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ (القمر: ١٤) و ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ (طه: ٣٩) و ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (الطور: ٤٨).

﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ (طه: ٥) و ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ (الأعراف: ٥٤) و ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ (الحاقة: ١٧).

﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ (الفجر: ٢٢) و ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ﴾ (البقرة: ٢١٠).

وقال الرسول ﷺ: «إذا كان الثلث الأخير من الليل نزل ربنا إلى السماء الدنيا فيقول: هل من داع فأستجيب له، هل من تائب فأتوب عليه، هل من مستغفر فأغفر له».

ويذكر العلماء أنه: بعد ظهور الإمامين أبى الحسن الأشعرى (ت٣٢٤هـ) وأبى منصور الماتريدى السمرقندى (ت٣٣١هـ) أخذ المتكلمة من أشاعرة وماتريدية، بالتأويلات المجازية، متبعين فى ذلك الأسلوب الذى بدأه المعتزلة من قبل.

لقد كان هناك المشبهة والمجسمة الذين يثبتون كل ما جاء فى القرآن الكريم من فوقية، وتحتية، واستواء على العرش، ووجه، ويد، ومحبة، وبغض، وما جاء فى السنة من ذلك أيضًا من غير تأويل وبالظاهر الحرفى، ممن تمسكوا بإثبات الظاهر، فصاروا يتهمون من قبل الأشاعرة بالتشبيه والتجسيم، ومن هؤلاء أبو الحسن الزاغونى، والقاضى محمد بن الحسين أبو يعلى، وأبو عامر القرشى الذى اشتهر عنه وهو يفسر قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أراد أن يدفع ـ بحمية بالغة ـ التفسير المجازى فضرب على ساقه وقال: (ساق حقيقة شبيهة تمامًا بهذه، وأشار إلى ساقه).

وسبب انتشار دعوة كهذه قصور كثير من الناس عن تفسير متشابهات القرآن وتمييز وجوه أمثالها ومجازاتها الرائعة عند العرب، لذا تصدى لهؤلاء وأمثالهم فى القرن السادس الهجرى الإمام الفقيه الحنبلى الخطيب ابن الجوزى، فصنف فى الرد عليهم رسالته الموسومة (دفع شبهة التشبيه).

ويقول فيها: رأيت من أصحابنا من تكلم فى الأصول بما لا يصلح، فصنفوا كتابًا شانوا به المذهب، رأيتهم قد نزلوا إلى مرتبة العوام، فحملوا الصفات على مقتضى الحس، فسمعوا أن الله خلق آدم على صورته فأثبتوا له صورة ووجهين زائدين على الذات، وفمًا، ولهوات، وأضراسًا، وأضواء لوجهه، ويدين، وإصبعين، وكفًا، وخنصرًا، وإبهامًا، وصدرًا، وفخذًا وساقين، ورجلين، وقالوا: ما سمعنا بذكر الرأس.

قد أخذوا بالظاهر فى الأسماء والصفات فسموها بالصفات تسمية مبتدعة، ولا دليل لهم فى ذلك من النقل، ولا من العقل و لم يلتفتوا إلى النصوص الصارفة عن الظواهر إلى المعانى الواجبة لله تعالى، ولا إلى إلغاء ما توجبه الظواهر من صفات الحدوث، و لم يقتنعوا أن يقولوا صفة فعل، حتى قالوا صفة ذات.

ثم لما أثبتوا أنها صفات، قالوا: لا نحملها على توجيه اللغة، مثل يد على نعمة وقدرة، ولا مجيء وإتيان على معانى بر ولطف، ولا ساق على شدة، بل قالوا: نحملها على ظواهرها المتعارفة، والظاهر هو المعهود من نعوت الآدميين.

والشيء إنما يحمل على حقيقته إن أمكن فإن صرف صارف حمل على المجاز، ثم يتحرجون من التشبيه، ويأنفون من إضاعته إليهم ويقولون: نحن أهل السنة، وكلامهم صريح فى التشبيه، وقد تبعهم خلق من العوام، وقد نصحت التابع والمتبوع، وقلت: يا أصحابنا: أنتم أصحاب وأتباع وإمامكم الأكبر أحمد بن حنبل رحمه الله وهو تحت السياط، كيف أقول ما لم يُقَل، فإياكم أن تبتدعوا من مذهبه ما ليس منه.

ثم قلتم: الأحاديث تحمل على ظاهرها فظاهر القدم الجارحة، ومن قال: استوى بذاته المقدسة، فقد أجراه مجرى الحسيات.

وينبغى ألا يهمل ما يثبت به الأصل وهو العقل فإنا به عرفنا الله تعالى، وحكمنا له بالقدم فلو أنكم قلتم: نقرأ الأحاديث ونسكت، ما أنكر أحد عليكم، إنما حملكم إياه على الظاهر قبيح، فلا تدخلوا فى مذهب هذا الرجل السلفى ما ليس فيه.

ويرى الباحثون: أنه إذا كان المعتزلة والأشاعرة والخطيب ابن الجوزى الحنبلى يؤولون، فإن الشيعة الإمامية يفسرون الأسماء والصفات بالقرآن، يقول الشيخ المفيد فى قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ وأما لفظة ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ وهى التى جعلت الآية من المتشابهات عند القوم فمعناها: التمكن التام، والاستيلاء الكامل، بدليل ما يظهر من آية: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ (المؤمنون: ٢٨) أى تمكنت، وآية ﴿فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ (الفتح: ٢٩) أى تمكن واستقام، وآية ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ (القصص: ١٤).

فالاستواء فيهن بمعنى التمكن التام دون الجلوس كما زعمت المشبهة، وكثير فى محاورات العرب استعمال (استوى) بمعنى التمكن التام: والاقتدار الكامل كقول بعيث الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

يريد تمكنه التام، غير أننا نتوخى على الدوام تفسير القرآن بالقرآن، والاهتداء منه إليه، وقد دلنا على معنى الاستواء أن الله سبحانه قد ظهر من خلقه للسموات والأرض تمكنه التام، واقتداره الكامل على عالم الأرواح.

أى دائرة ملكه الخاص به، والمهيمنة على عالم الأجسام، ويؤيد ذلك قوله تعالى بهذه الآية: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ (طه: ٦) مشيرًا إلى أنه استوى قبل كل شىء، على عالم الملكوت، والأرواح، ثم تمكن بذلك من تملك عالم الناسوت والأجرام.

إن انطلاقة علماء المذاهب الإسلامية، كانت من القرآن الكريم، والقرآن كان رائدهم فيما ذهبوا إليه، وكما قال الأنبارى: (إن القرآن يدل على الاختلاف، فالقول بالقدر صحيح وله أصل فى الكتاب، والقول بالإجبار صحيح، وله أصل فى الكتاب، فمن قال بهذا مصيب، ومن قال بهذا مصيب).

وقد ساعد المجاز علماء المذاهب الكلامية على قول كثير من الآراء، ويحدد ابن قتيبة جوانب المجاز فيما يلى: (الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم، والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء، والإظهار، والتعريض، والإفصاح، والإيضاح، ومخاطبة الجميع، والجمع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب

الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص، مع أشياء أخرى كثيرة).

وإذا كان الاختلاف يخترق جميع الأمم والملل المعروفة، فإن للاختلاف الذى وقع (بين المذاهب الكلامية) بنيته الأصلية المستمدة من خصوصية النص القرآنى، والحديث النبوى.

ونعنى بالخصوصية هذا ما منح النص القرآنى إعجازه، وما امتاز به على سائر النصوص، فالخطاب القرآنى كلام تتسع معانيه، وتتعدد وجوه الدلالة فيه.

إنه كلام لا يمكن استقصاء معانيه أو حصر دلالاته، يقول الزركشى: (معانى القرآن لا تستقصى، ولا نهاية لفهم كلام الله) ولا يمكن لأحد أن يقبض عليه، أو يفوز بحقيقته، من هذا تباين التفاسير والتأويلات، واختلاف الطرق، والمذاهب، وتعدد الفرق، والمقالات.

إذًا نحن نحتاج أول ما نحتاج إلى الإعلان عن (حق الاختلاف) الذى هو حق من حقوق الإنسان، إن لم يكن أبرزها، حتى يكون اختلاف الآخر عن الأنا أمرًا لا جدال فيه، أى حتى يتم قبول كل فريق بالفريق الآخر، وكما هو فى معتقده ومذهبه.

وما دمنا لم نصل إلى الوحدة بعدم اعترافنا بحق الغير، فالأولى أن نعترف بذلك، فإن وحدة تحاول أن تستتبع الآخر، أو تلحقه، أو تقهره، وتستبد به، لن تعمر طويلاً، إذ سرعان ما يتصدع البناء، كذلك فإن الخطاب الذى لا يزيد عن تكرار أجوف لهوية فاقدة لمقوماتها، لن يصنع وحدة أبدًا.

هكذا ينبغى للجميع أن يكتبوا ببيان الاختلاف، معترفين ببعضهم مقرين بأن الواحد هو شطر الآخر، وبأن العقائد والمذاهب وجوه لحقيقة واحدة، والاعتراف بحق الغير، وبأن له حقيقته، وقسطه من الوجود يتطلب ذهنًا مفتوحًا، وعقلاً نيرًا.

ولا يخفى أننا إذا نجحنا معتزلة وأشعرية، وإمامية، وحنابلة، فى الإقرار بالاختلاف، وأنه ضرورة من ضرورات الحياة، استطعنا أن نبدأ فى الطريق.

وحسب الأمة أن تستثمر اللقاء على أصول الإسلام التى لا يكون المسلم مسلمًا إلا بها، ثم تعى بعد ذلك دور العقل الإسلامى وانطلاقه.

وتدرك فى وضوح أن الخلاف والاختلاف ضرورة حياتية وحضارية، والأمة الإسلامية كانت وما زالت تملك رصيدًا ضخمًا من الأصول والقواعد يمكن الأمة من تنمية فلسفتها الخاصة بها، والتى تجمع شملها، وتوحد صفوفها.

وقد أتم الله على الأمة وحدة الأصل الإنسانى ووحدة العقيدة، ووحدة المصدر، ووحدة الشعور، ووحدة الصف، ووحدة العبادات.

وكتاب: «غاية المرام من علم الكلام» جاء فى علم الكلام

واصطلاح «علم الكلام» قد أطلق على نظام خاص من الفكر، قام بين المسلمين قبل الترجمة، وسابقًا على وجود الفلسفة وأسسها.

وأصحاب هذا الفن كانوا يسمون «متكلمين» فى مقابلة نوع آخر من المفكرين الذين ابتدءوا بالكندى، وعرفوا باسم «الفلاسفة».

فاصطلاح علم الكلام ظهر بين المسلمين على وجه طبيعى، حين ثار الجدال بين المسلمين حول مسائل العقيدة[١].

ولا بد أن ندرك: أن هناك فارقًا بين الإسلام وبين الفكر الإسلامى، فالإسلام هو دين الله تعالى، المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ ومصدر الإسلام، هو: الكتاب والسنة.

أما الفكر الإسلامى فهو العمل العقلى للمسلمين فى فهم ما جاء فى الكتاب والسنة، ومن ثم فإن الإسلام لأنه يعتمد على وحى معصوم، لا اختلاف ولا تناقض فيه.

أما الفكر الإسلامى فهو يمكن أن يقع فيه الاختلاف حسب اجتهادات المجتهدين، ومستوياتهم الفكرية[٢].

وإن الباحث فى تطور الفكر الإسلامى، الذى يمثل العمل العقلى للمسلمين يجد أن هذا الفكر قد مر فى مرحلتين:

---

(١) الدكتور عبد العزيز سيف النصر، فلسفة علم الكلام، ص٧، ٨ ط الجبلاوى، بالقاهرة ١٩٨٣م.

(٢) المصدر السابق، بتصرف.

المرحلة الأول: كانت فى ظهور نظام موحد من الاعتقاد، مأخوذ من تعاليم القرآن الكريم، والسنة النبوية، وقد حكمت المرحلة الأولى بأناس أتقياء ورعين، كان همهم الاقتداء برسول الله ﷺ، ونشر الدين[٣].

والمرحلة الثانية: كانت فى ظهور ما دار حول مسائل اعتقادية، انتزعها العقل الإنسانى، من واقع ملىء بالتساؤلات.

وإذا كان قد وضح أن هناك فرقًا بين الإسلام القائم على الكتاب والسنة، وبين الفكر الإسلامى، الذى هو العمل العقلى للمسلمين، فى فهم ما جاء فى الكتاب والسنة، فإن الأمر يقتضى أن نعرف: أن الإسلام يتكون من نوعين من التكاليف:

- التكاليف البدنية.
- التكاليف القلبية.

والتكاليف البدنية تتكون من التشريعات الإلهية التى تحكم جميع أفعال المسلمين والعلم الذى يتناولها هو الفقه، ولهذا كان «الفقه معرفة أفعال الله فى المكلفين بالوجوب، والندب، والكراهية، والإباحة، وهى متلقاة من الكتاب والسنة، وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة»[٤].

أما التكاليف القلبية فهى العقائد التى تقررت فى الدين والتصديق بما فى القلوب، والاعتقاد فى الأنفس مع الإقرار بالألسنة، وهذه هى العقائد الإيمانية المقررة فى علم الكلام[٥].

فعلم الكلام يعنى بالإلهيات، والنقاش فى هذا العلم هو الذى كون علم الكلام، وإذا كان الأمر ــ كما بينت ــ فإن الفرق بين الإسلام القائم على الكتاب والسنة، وبين الفكر الإسلامى القائم على العمل العقلى للمسلمين ينتهى

---

(٣) المصدر السابق ص٨.

(٤) انظر ابن خلدون، المقدمة، ص٣٥٣ط، بيروت.

(٥) راجع الدكتور عبد العزيز سيف النصر، فلسفة علم الكلام، ص٩ بتصرف.

إلى علاقة وطيدة الصلة، صنع هذه العلاقة، النقاش الذى دار حول العقائد الإيمانية[٦].

لقد اتخذ الكلام معنى اصطلاحيًا، وتفرد بمنهج عقلى خاص، استهدف الدفاع عن العقائد الإيمانية العقلية وسميت الأقوال التى تصاغ كتابة أو شفاهًا على نمط منطقى أو جدلى: «كلامًا» ولا سيما تلك التى تعالج المسائل الاعتقادية[٧].

وعلم الكلام هو: العلم بأحكام الألوهية، وإرسال الرسل، صدقها فى أخبارها وما يتوقف شيء من ذلك عليه، خاصًا به، وتقرير أدلتها بقوة، وهى مظنة لرد الشبهات، وحل الشكوك»[٨].

ويقول الغزالى: إنى ابتدأت بعلم الكلام فحصلته، وعقلته، وطالعت كتب المحققين منهم، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف فصادفته علمًا وافيًا بمقصوده، غير واف بمقصودى، وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش البدعة، فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هى الحق، على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار، ثم ألقى الشيطان فى وساوس المبتدعة أمورًا مخالفة للسنة، فلهجوا بها، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها، فأنشأ الله طائفة المتكلمين، وحرك دواعيهم لنصرة السنة، بكلام مرتب، يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثة، على خلاف السنة المأثورة، فمنه نشأ علم الكلام وأهله»[٩].

ويذكر عضد الدين الإيجى علم الكلام بأنه: «علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية، بإيراد الحجج، ودفع الشبه»[١٠].

---

(٦) الدكتور أحمد السايح، علم العقيدة بين الأصالة والمعاصرة، ص٥٠ ط دار الطباعة المحمدية ١٤٠٠هـ.

(٧) الدكتور محمد على أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام، ص١٣١، ١٣٢.

(٨) السنوسى، السنوسية الكبرى، ص٩٦.

(٩) الغزالى، المنقذ من الضلال، ص٨٧، ٨٨ط، دار الكتاب اللبنانى.

(١٠) عضد الدين الإيجى، المواقف جـ١ ص٣٢، ط اسطنبول.

أما ابن خلدون فإنه يقول: «علم الكلام هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة»[١١].

وطاش كبرى زاده، والتهافوى، يقولان عن علم الكلام: «علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية، بإيراد الحجج عليها، ودفع الشبه عنها»[١٢].

والجرجانى يقول: «هو العلم بالقواعد الاعتقادية المكتسبة عن الأدلة».

ومن هذه التعريفات المختلفة يمكن استنتاج جملة أمور هى:

ـــ إن علم الكلام يأخذ بمنهج البحث، والنظر، والاستدلال العقلى، كوسيلة لإثبات العقائد الدينية، التى تثبت بالوحى، ولهذا فهو يعرف أحيانًا بـــ «علم النظر والاستدلال».

ـــ إن وظيفة علم الكلام إنما هى دفع الشبه، ورد الخصوم، والاحتجاج العقلى على صحة العقائد الإيمانية.

ـــ ومن العلماء من يرى أن لعلم الكلام وظيفتين مزدوجتين هما:

أولاً: إثبات العقائد الدينية بالأدلة العقلية.

وثانيًا: دفع الشبه ورد الخصوم عنها[١٣].

وعلم الكلام نشأ من أحوال البيئة الإسلامية نفسها، فهو من هذه الناحية نتاج البيئة الإسلامية وحدها، ويبدو أن هذه الأحوال الإسلامية كانت منبعثة: من الفضول العقلى، ومن محاولة إقناع غير المسلمين فى أول الأمر بعقائد الإسلام، ومن التشدد فى المبادئ، ومن السياسة[١٤].

---

(١١) ابن خلدون، المقدمة ص ٣٦٣.

(١٢) طاش كبرى زاده، مفتاح السعادة ومصباح دار السيادة، جـــ ٢ ص٢٠ والتهانوى، كشاف اصطلاحات الفنون، جـــ١ ص٢٠ ط كلكتا، الهند ١٨٦٢م.

(١٣) الدكتور عرفان عبد الحميد، دراسات فى الفرق والعقائد الإسلامية، ص١٣٥، ط مؤسسة الرسالة ١٤٠٤هـــ بيروت.

(١٤) د. عمر فروخ، الفكر العربى، ص٨٧، ط دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٦م.

فعلم الكلام لم ينشأ رغبة من المتكلمين فى الجدل والمراء، وإنما نشأ دفاعًا عن الدين، ودرءًا للخطر الذى كاد يزلزل قضايا الإسلام والمسلمين من نفوس المسلمين(١٥).

ولا يخفى أن كثيرين ممن دخلوا الإسلام بعد الفتح كانوا من ديانات مختلفة يهودية، ونصرانية، ومجوسية وصابئة، وبراهمة، وغيرها، وقد أظهروا آراء دياناتهم القديمة فى ثوب دينهم الجديد(١٦).

ولما انتهى المسلمون من الفتح الإسلامى أخذت تظهر أفكار مجانبة للصواب من أصحاب الديانات القديمة، مما أحدث اضطرابًا وقلقًا، ووسط هذا الاضطراب الفكرى، والمبادىء التى كونتها كل فرقة لنفسها، قام جماعة من المخلصين يشرحون عقائد المسلمين كما هى فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ومن أشهرهم الحسن البصرى، ثم كان الإمام أبو حنيفة وأتباعه(١٧).

وفى أواخر القرن الثالث الهجرى ظهر أبو منصور الماتريدى، واشتغل بالرد على أصحاب العقائد الباطلة، وتكونت منه ومن أتباعه فرقة الماتريدية، وفى أواخر القرن الثالث، وأوائل الرابع، كان الإمام الطحاوى، وأبو الحسن الأشعرى، وتوالى علماء الكلام يدافعون عن عقائد المسلمين، كالإمام الجوينى، والغزالى، والفخر الرازى، وعضد الدين الإيجى، والبيضاوى، وسعد الدين التفتازانى، والسيد الشريف الجرجانى، وغيرهم(١٨).

وقد تكونت على مدى قرون زخائر كلامية واسعة، مما جعل علم الكلام الإسلامى من أكثر العلوم ازدهارًا، ونماءً، وأصبح هذا العلم يشكل تراثًا مترامى الأطراف، موصول العطاء.

---

(١٥) انظر الدكتور أحمد السايح، علم العقيدة بين الأصالة والمعاصرة، ص٥٧.

(١٦) الدكتور سامى عفيفى حجازى، مدخل لدراسة علم الكلام، ص١٨ط دار الطباعة المحمدية بالقاهرة.

(١٧) الدكتور على جبر، مذكرة فى علم التوحيد، ص٢٠.

(١٨) الدكتور سامى عفيفى حجازى، مدخل لدراسة علم الكلام، ص١٩.

ولما كان الدكتور أحمد السايح مشرفًا على رسالة الدكتوراة ١٤١٩هـ «سيف الدين الآمدى وأراؤه الكلامية» فى جامعة أم القرى بمكة المكرمة للباحثة: إحسان عبد الغفار مرزًا، فقد عايش آراء سيف الدين الآمدى وأراءه الكلامية وردود شيخ الإسلام ابن تيمية عليه فى: «درء تعارض العقل والنقل».

ودار بين الدكتور أحمد السايح والمستشار توفيق على وهبة رئيس المركز العربى للأبحاث والدراسات والحاج أحمد أنسى عبد المجيد صاحب مكتبة الثقافة الدينية حديث طويل عن سيف الدين الآمدى وكتابه: «غاية المرام فى علم الكلام، وحاجة الناس إليه فى هذا الظرف العصيب الذى تمر فيه الأمة وبدا للجميع حاجة الناس خاصة العلماء إلى «غاية المرام فى علم الكلام».

لذا بدا لنا أن نقدمه للعلماء والباحثين، بعد أن راجعنا المخطوطة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالقاهرة، وراجعنا كذلك النسخة المطبوعة فى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧١م بتحقيق الدكتور حسن محمود عبد اللطيف.

والحق يقال: أن الدكتور حسن عبد اللطيف قام بدور مرض فى التحقيق، وقد استفدنا منه كثيرًا.

ولما كان الكتاب مهمًّا والناس فى حاجة إلى علم الكلام، رأينا تقديمه للقراء وأهل العلم.

أ. د أحمد عبد الرحيم السايح المستشار توفيق على وهبة

obeikandl.com

التعريف بالإمام العلامة
سيف الدين الآمدى الشافعى

هو على بن أبى على بن محمد بن سالم التغلبى الآمدى ويكنى بأبى الحسن ولقبه: سيف الدين الآمدى أو السيف الآمدى ويطلق عليه السيف اختصارًا.

فإذا قيل: السيف، انصرف القول إلى السيف الآمدى أو سيف الدين الآمدى.

والتغلبى نسبة إلى تغلب وهى قبيلة عربية مشهورة تنسب إلى تغلب بن وائل.

والآمدى نسبة إلى مدينة آمد التى ولد فيها.

وينسب الآمدى أيضًا إلى البلاد التى انتقل إليها وسكن فيها خلال رحلاته العلمية: إما لطلب العلم أو للتدريس فيقال البغدادى ثم المصرى ثم الحموى ثم الدمشقى.

وبالنسبة لانتمائه المذهبى فقد كان حنبليًّا ثم انتقل إلى المذهب الشافعى.

مولده: ولد سيف الدين فى عام ٥٥١هـ فى بلدة آمد وقرأ القرآن وحفظ كتاب الهداية فى مذهب الإمام أحمد بن حنبل وتعلم القراءات وقرأ على مشايخ بلده مذهب الشافعى.

رحلاته العلمية:

أولاً: انتقل عام ٥٦٥هـ إلى بغداد فقرأ بها القراءات وتفقه على أبى الفتح ابن المنى الحنبلى وسمع الحديث من أبى الفتح بن شاتيل.

وخلال إقامته ببغداد انتقل إلى المذهب الشافعى وصحب أبا القاسم بن فضلان وحفظ طريقة الخلاف للشريف العباسى المراغى الذى كان أنظر الفقهاء، وصنف طريقته المشهورة فى الخلاف كما صنف فى الجدل كتابًا ولم يكمله، وقد تعلم سيف الدين على يديه الجدل والخلاف.

وتذكر المراجع أن سبب انتقاله من المذهب الحنبلى إلى المذهب الشافعى أنه تعرف على شيخ الشافعية فى بغداد جمال الدين أبى القاسم يحيى بن الفضل

المعروف بابن فضلان، وكان حجة فى الفقه الشافعى وفى علوم الجدل والمناظرة وأصول الفقه والكلام والمنطق مع ظرف ولطافة ونزوع إلى الأدب[١].

ثانيًا: سافر إلى الشام لإكمال دراسته فتعلم بها العلوم العقلية ومكث بها عشر سنوات واشتغل بعلوم المعقول وحفظ منه الكثير ومهر فيه ولم يكن فى زمانه أحفظ منه لهذه العلوم العقلية.

ولقد أخذ علم الأوائل عن جماعة من نصارى الكرخ ويهودها وتظاهر بذلك فجفاه العلماء وعابوه ووقعوا فى عقيدته فلم يجد له مكانًا بينهم فانتقل إلى مصر[٢].

ثالثًا: انتقل إلى مصر عام ٥٩٢هـ وتولى التدريس فناظر وحاضر وتصدر الجامع الظافرى مدة واشتهر علمه وذاع صيته واجتمع عليه الناس طلبًا للعلم والانتفاع به وألف تصانيف فى علوم الأوائل ونقلت عنه وقرأها عليه من رغب فى ذلك، كما قرئ عليه كتبه فى أصول الدين وأصول الفقه.

ولذلك كثر حاسدوه، كما هى عادة الحساد فى كل زمان ومكان وتصديهم وحقدهم وحسدهم للنابهين والناجحين وبثهم الشكوك والشبهات حوله وأشاعوا عنه فساد عقيدته بل نسبوه إلى الضلال والكفر مما دعاه إلى ترك مصر والتوجه إلى الشام ونحن نسمى هؤلاء بحزب أعداء النجاح سواءً أكانوا قدامى أو معاصرين.

قال ابن خلكان عن هذه الفتنة التى حاقت بالسيف الآمدى:

«ثم حسده جماعة من فقهاء البلاد وتعصبوا عليه ونسبوه فى العقيدة إلى الفساد والخلال الطوية والتعطيل ومذهب الفلاسفة والحكماء، أو إلى الكفر والتضليل، وكتبوا محضرًا بذلك ووضعوا فيه خطوطهم بما يستباح به الدم، قال: بلغنى عن رجل منهم فيه عقل ومعرفة: أنه لما رأى التحامل عليه وإفراط التعصب كتب فى المحضر وقد حمل إليه ليكتب فيه مثل ما كتبوا، فكتب:

---

(١) عقيدة سيف الدين الآمدى فى الله وصفاته دراسة ونقد على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة ــ رسالة دكتوراة فى العقيدة ــ دكتورة إحسان بنت عبد الغفار عبد الله مرزا ــ إشراف: دكتور أحمد السايح ص٥٤، ٥٥ عن الدكتور حسن عبد اللطيف الشافعى ص٩.

(٢) القفطى ــ إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص١٦١.

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا فضله فالقوم أعداء كلهم وخصوم[١]

فلما أحسَّ الآمدى بالخطر المحدق به هاجر إلى الشام.

رابعًا: رحل إلى الشام مستخفيًا، وفى ذلك يقول السبكى: ثم دخل الديار المصرية وتصدر للاقراء، وأعاد يدرس الشافعى، وتخرج به جماعة ثم وقع التعصب عليه فخرج من القاهرة مستخفيًا، وقدم حماة فأقام بها ثم قدم دمشق[٢].

وقد ألف فى حماة فى الأصلين والحكمة والمنطق والخلاف، ولما قدم دمشق ولاه الملك المعظم بن العادل التدريس بالمدرسة العزيزية واستمر بها حتى عام ٦٣١، وكان ذائع الصيت كثير الطلاب والدارسين.

ولما تولى الأشرف موسى عزل سيف الدين الآمدى من التدريس ونادى فى المدارس أن لا يشتغل أحد من الفقهاء بشىء من العلوم سوى التفسير والحديث والفقه وقال: «من ذكر غير التفسير والحديث والفقه أو تعرض لكلام الفلاسفة نفتيه».

فأقام الآمدى خاملاً فى بيته إلى أن توفى[٣].

رأى العلماء فيه:

أولاً: ابن خلكان: قال قاضى القضاة شمس الدين ابن خلكان فى بعض تعاليقه: ما عسى أن يقال فى أعجوبة الدهر وإمام العصر وقد ملأت تصانيفه الأسماع، ووقع على تقدمه وفضله الإجماع.

إمام علم الكلام، ومن أقر له فيه الخاص والعام، صاحب المصنفات المشهورة والتعاليق المذكورة، ومن أكبر جهانذة الإسلام، ومن يرجع إلى قوله فى الحل والإبرام والحلال والحرام.

---

(١) الإمام اليافعى المكى: مرآة الجنان وعبر اليقظان جـ٤ ص٧٤ وسير أعلام النبلاء جـ٣٢ ص٣٦٤، ٣٦٥.

(٢) الآسنوى: طبقات الشافعية ص٧٣ وابن شهاب طبقات الشافعية جـ٢ ص٧٩/٨٠.

(٣) القفطى ــ أخبار العلماء ص١٦١، والبداية والنهاية جـ١٣ ص١٥١/ ١٦١ عن كتاب عقيدة سيف الدين الآمدى للدكتورة إحسان عبد الغفار مرزا ــ مرجع سابق ص٥٧، ٥٨ بتصرف.

ولما بلغ أربع عشرة سنة انحدر إلى بغداد واشتغل على الإمام أبي الفتح نصر ابن فتيان ابن المنى الحنبلى فى الخلاف على مذهبه مدة، ثم صحب الإمام العلامة أبا القاسم يحيى بن أبى الحسن على بن الفضل بن هبة الله بن بركة البغدادى بن فضلان الشافعى وأخذ عنه الخلاف وتميز فيه، وحفظ طريقة الشريف والزوائد لأسعد الميهنى.

وحفظ أربعين جدلاً على ما قيل.

وقدم إلى حلب واجتمع بالشهاب السهروردى الحكيم المقتول، وحكى عنه أنه قال: رأيت كأنى شربت البحر وهذا المنام رآه ابن تومرت، وعزم على الدخول إلى الديار المصرية، أخبرنى عنه بعض أصحابه أنه سمعه يقول: لما أردت الدخول إلى الديار المصرية كررت على طريقة الشريف، ثم دخل مصر والإسكندرية، واشتغل عليه الطلبة، وعقد له مجلس المناظرة، واستدل بالتعيين، ثم خرج منها فاجتاز بحماة، فأرغبه صاحبها وأحسن إليه، وأعطاه مدرسة فأقام بها مدة.

ثم إن المعظم عيسى بن العادل كتب إليه ووعده إن قدم إليه أن يحسن إليه، وحبب إليه سكنى دمشق، وكان سيف الدين يحبها ويؤثر المقام بها، فخرج من حماة ليلاً ولم يعلم به صاحبها، ودخل دمشق فأحسن إليه المعظم وولاه المدرسة العزيزية المجاورة لتربة الملك الناصر صلاح الدين، وأقبل على الاشغال والاشتغال، والتصنيف، عقد له مجلس المناظرة ليلة الجمعة وليلة الثلاثاء بالحائط الشمالى من جامع دمشق، وكان يحضره الأكابر من كل مذهب، ورحل إليه الطلبة من جميع الآفاق من سائر الطوائف لطلب العلم.

وكان خير الطباع سليم القلب حسن الاعتقاد قليل التعصب، رأيت عنده جماعة من أصحاب الإمام أحمد يشتغلون عليه، وكذلك أصحاب الإمام أبى حنيفة ومالك رضى الله عنهم، وهو فى غاية الإكرام لهم والإحسان إليهم حتى قيل له: يا مولانا تراك تؤثر الحنابلة وتزيد فى الإحسان إليهم! فقال على سبيل المزاح: المرتد لا يحب كسر المسلمين، يعنى أنه كان قديمًا حنبليًا.

حكى لى تلميذه القاضى أبو الروح عيسى ابن القاضى أبى العباس أحمد بن داود الرشتى المعروف بابن قاضى تل باشر، قال: سمعت شيخنا الإمام سيف الدين يقول: رأيت فى النوم كأن قائلاً يقول لى: هذا البيت للإمام الغزالى، قال: فدخلت فوجدت تابوتًا فكشفته فوجدت الغزالى فيه وعليه كفنه، وهو فى القطن، قال: فكشفت عن وجهه وقبلته، فلما انتهيت قلت فى نفسى: يليق أن أحفظ كلام الغزالى، فأخذت كتابه المستصفى فى أصول الفقه فحفظته فى مدة يسيرة.

قال: وسمع الحديث ببغداد من الشيخ أبن الفتح عبيد الله بن عبد الله بن محمد ابن نجا بن محمد بن شاتيل الدباس البغدادى، وحدث عنه بدمشق رحمه الله.

أنشدنى الأديب الكاتب الشاعر فخر القضاة أبو الفتح نصر الله بن هبة الله بن عبد الباقى بن أبى البركات المصرى المعروف بابن بصاقة لنفسه، وكتب بها إلى الإمام سيف الدين الآمدى فى حق صاحبنا عماد الدين أبى بكر محمد بن عثمان ابن إسماعيل بن خليل السلمانى الكاتب، وقد عزم أن يقرأ على الشيخ سيف الدين شيئا من تصانيفه يوصيه بها وينبهه على مكانته: من البسيط.

يا سيـــدًا جمل الله الوجود بـــه ... وأهله من جميع العجم والعرب
العبد يذكر مولاه بـــما سبقـــت ... وعوده لعماد الدين عن كـــثب
ومثل مولاى من جاءت مواهبه ... من غير وعد وجدواه بلا طلب
فأصف من بحرك الفياض مورده ... وأغنه من كنوز العلم لا الذهب
واجـــعل له نسبًا يدلى إليك به ... فلحمة العلم تعلو لحمة النسب
ولا تكـــله إلى كتـــب تنـــبئه ... فالسيف أصدق أنباء من الكتب

فوقعت هذه الأبيات من الإمام سيف الدين أحسن موقع، وأقبل على العماد وأحسن إليه، وقرأ بعد ذلك عليه.

وأخبرنى بعض أصحاب الإمام سيف الدين أن بعض الفضلاء المشهورين والمدرسين المذكورين ذهب عنى اسمه حضر درس الإمام سيف الدين ولزم معه الأدب، وجعل دأبه الاستماع والانتفاع دون الجدل وترك القيل والقال، فقال له الإمام سيف الدين: يا فلان الدين، لم لا تشرفنا وتشنف أسماعنا بفوائدك وفرائدك؟ فكان جوابه أن أنشد من الطويل:

وفى حينا نحن الموالى لأهله وفى حى ليلى نحن بعض عبيدها

فدعا له سيف الدين أيضًا وبجله وأكرمه.

رأى الإمام عز الدين بن عبد السلام: وسألت شيخنا الإمام العلامة عز الدين بن عبد السلام عن درس الإمام سيف الدين، فقال: ما سمعت أحدًا يلقى الدرس أحسن منه، كأنه يخطب، وإذا غير لفظًا من الوسيط كان لفظه أمس بالمعنى من لفظ صاحبه أو كما قال فإن علقته من حفظى، وكفاك به جلالة ونبلاً أن الإمام عز الدين من أصحابه ومن كبار طلابه، ملازمًا لدرسه راضيًا طريقته مع خبرة علانيته وسريرته.

ولقد سمعته يومًا يقول: ما عرفنا قواعد البحث إلا من الشيخ سيف الدين أو ما هذا معناه.

وكان يعظمه ويجله ويبجله.

وسمعت عنه أنه قال: لو ورد على الإسلام متكلم أو مشكك أو ما هذا معناه لتعين الإمام سيف الدين لمناظرته لاجتماع أهلية ذلك فيه، أو كما قال.

وسمعت الإمام جمال الدين أبا عمرو عثمان بن أبى بكر المالكى المعروف بابن الحاجب يقول: ما صنف فى أصول الفقه مثل كتاب سيف الدين الآمدى الإحكام فى أصول الأحكام، ومن محبته له اختصره رحمه الله تعالى.

ولما مات الشيخ سيف الدين رحمه الله تعالى، أخبرنى صاحبنا زين الدين أبو عبد الله محمد بن الحسن بن على بن أبى المحاسن بن طاهر الأنصارى المقدسى، قال: أخبرنى بعض الفضلاء أنه رأى الشيخ سيف الدين فى المنام بعد موته فقال له: يا مولانا، ما فعل الله بك؟.

فقال: أجلسنى بين يديه وقال لى: استدل على وحدانيتى بين ملائكتى، فقلت: الحوادث اقتضت تعلقًا بمحدث لتخرج عن حد الاستحالة، وكان لا بد من محدث، ثم كان القول بالاثنين مثل القول بالثلاثة والأربعة إلى ما لا يتناهى، فلم يترجح منها شىء فسقط ما وراء الواحد وبقى الواحد صحيحًا أو كما قال ثم أدخلنى الجنة، وكان صاحب آمد الملك المسعود ركن الدين مودود بن الملك الصالح أبى الفتح محمود بن نور الدين محمد بن فخر الدين قرا أرسلان بن ركن

الدولة سقمان بن أرتق بن أكسب قد رغب أن يكون الشيخ سيف الدين الآمدى فى آمد وكاتبه ووعده أن يجعله قاضى القضاة ويقطعه جاريًا كبيرًا، وجهد فى ذلك.

وكان أصحاب الشيخ يؤثرون ذلك ليتسع الرزق عليهم، فإن الشيخ كان يؤثر الراحة والقناعة، وكان يحب سكنى دمشق، فلما تكرر طلبه وعد بالإجابة، وجعل يدافع من وقت إلى وقت، فلما أخذ الملك الكامل آمد من صاحبها ورتب فيها النواب، أراد أن يولى فيها قاضيًا من جهته، فأجرى الحديث فى ذلك والسلطان الملك الأشرف بن العادل وصاحب آمد يسمع فقال صاحب آمد: يا مولانا كان المملوك قد كاتب الشيخ سيف الدين الآمدى فى أن يجعله قاضيًا فى آمد وأجاب إلى ذلك، وأراد أن ينفع الشيخ سيف الدين بهذا القول، فنظر الكامل إلى الأشرف كالمنكر عليه أن يكون فى بلده مثل هذا الرجل وقد عزم على مفارقتها وهو يكاتب ملكًا آخر، فبقيت فى نفس الأشرف إلى أن ورد دمشق، فأخذ المدرسة العزيزية منه ووقع بها لمحيى الدين بن الزكى، وقطع جاريه وأمره أن يلزم بيته، فبقى على هذه الحال إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وفاته: هدأت روح الإمام الآمدى بعد رحلة من العلم والعذاب وتكفير السفهاء له وظلم الحكام، بدأت منذ أن كان يافعًا مغادرًا قريته الصغيرة إلى بغداد واستهلكت عمره كله حتى استقر المقام آخر العمر بدمشق الشام.

وتوفى ليلة الاثنين وقت صلاة المغرب ثانى صفر سنة إحدى وثلاثين وست مائة بدمشق، ودفن يوم الاثنين بسفح قاسيون رحمه الله.

ولما مات توقف الأكابر والعلماء بدمشق عن حضور جنازته خوفًا من الملك الأشرف إذ كان متغيرًا عليه، فخرج الإمام عز الدين فى جنازته وجلس تحت قبة النسر حتى صلى عليه، فلما رأى الناس ذلك بادروا إليه وصلوا عليه.

رثاؤه: أنشد الأديب العارف نجم الدين أبو المعالى محمد بن سوار بن إسرائيل لنفسه بدمشق وقد عزل سيف الدين كما ذكرنا: من السريع:

قد عزل السيف وولى القراب ... دهر قضى فينا بغير الصواب

فاضحك على الدهـــر وأربابه ... وابك على الفضل وفصل الخطاب

وحضرنا فى بستان للشيخ سيف الدين بأرض المزة بدمشق بعد موته مع جماعة من أصحابه، وفينا نجم الدين ابن إسرائيل، فكتب على سارية تحت عريش، كان كثيرًا ما يجلس الشيخ سيف الدين رحمه الله إليها حين يقرأ عليه العلم: من السريع:

يا مربعًا قلبى له مربع ... جادك غيث أبدًا يعمه
عهدى بمغناك وفى أفقه ... شمس المعالى والحجى تطلع
وكنت غمد السيف حتى قضى ... والغمد بعد السيف لا يقطع

وأنشدنى نجم الدين ابن إسرائيل أيضًا لنفسه من أبيات يرثى بها الشيخ سيف الدين وقد جادت السماء عند دفنه بمطر عظيم: من الكامل:

بكت السماء عليه عند وفاته ... بمدامع كاللؤلؤ المنثور
وأظنها فرحت بمصعد روحه ... لما سمعت وتعلقت بالنور
أوليس دمع الغيث يهمى باردًا ... وكذا تكون مدامع المسرور

تصانيفه: أبكار الأفكار فى أصول الدين ثلاث مجلدات، واختصره فى كتاب منائح القرائح مجلد ــ مجلد لطيف فى أصول الفقه ــ الإحكام فى أصول الأحكام فى مجلدين ــ كتاب منتهى السول فى علم الأصول مجلد ــ كتاب رموز الكنوز مجلد ــ لباب الألباب مجلد فى المنطق ــ فرائد الفوائد فى الحكمة مجلد ــ الغرائب وكشف العجائب فى الاقترانات الشرطية مجلد ــ شرح جدل الشريف مجلد ــ غاية الأمل فى الجدل ــ الباهر فى الحكم الزواهر ــ حكمة ثلاثة مجلدات ــ غاية المرام فى علم الكلام مجلدان ــ ثلاثة تعاليق خلاف ــ كشف التمويهات على الإشارات والتنبيهات مجلدة كبيرة ــ مآخذ على المحصول مجلدة ــ المآخذ الجلية فى المواخذات الجدلية جزء.

انتهى ما نقلناه من كلام القاضى شمس الدين ابن خلكان.

ثانيًا: ابن تيمية: أثنى ابن تيمية على سيف الدين الآمدى وأشاد بمكانته العلمية ووصفه بأنه من حذاق النظار ومن أذكياء المتكلمين وقال: كان من أحسن

معاصريه إسلامًا وأمثلهم اعتقادًا[1] ومع ذلك يرى ابن تيمية أن سيف الدين له مزالق نبه عليها فى بعض كتبه.

ثالثًا: الإمام العز بن عبد السلام: وقد أشاد بعلمه وتصانيفه وكان تلميذًا للآمدى هو وجماعة من كبار أئمة العلوم الإسلامية فى عصره، وقد سبق بيان رأى العز فى شيخه فيما نقلناه عن ابن خلكان فيراجع ضمن رأى ابن خلكان منعًا من التكرار.

رابعًا: على بن أنجب:

قال على بن أنجب فى «أسماء المصنفين»: اشتغل بالشام على المجير البغدادى، ثم ورد إلى بغداد واشتغل بـ «الشفاء» وبـ «الشامل» لأبى المعالى، وحفظ عدة كتب وكرر على «المستصفى».

وتبحر فى العلوم، وتفرد بعلم المعقولات والمنطق والكلام، وقصده الطلاب من البلاد، وكان يواسيهم بما يقدر، ويفهم الطلاب ويطول روحه.

قلت: ثم أقرأ الفلسفة والمنطق بمصر بالجامع الظافرى، وأعاد بقية الشافعى، وصنف التصانيف، ثم قاموا عليه، ورموه بالانحلال، وكتبوا محضرًا بذلك.

قال القاضى ابن خلكان: وضعوا خطوطهم بما يستباح به الدم، فخرج مستخفيًا، ونزل حماة وألف فى الأصلين والحكمة المشئومة والمنطق، والخلاف، وله كتاب «أبكار الأفكار» فى الكلام، و «منتهى السول فى الأصول» و «طريقة» فى الخلاف، وله نحو من عشرين تصنيفًا.

ثم تحول إلى دمشق، ودرس بالعزيزية مدة، ثم عزل عنها لسبب اتهم فيه، وأقام بطالاً فى بيته، قال: ومات فى رابع صفر سنة إحدى وثلاثين وست مائة وله ثمانون سنة، وقال سبط الجوزى لم يكن فى زمانه من يجاريه فى الأصلين وعلم الكلام، وكان يظهر منه رقة قلب وسرعة دمعة، أقام بحماة، ثم بدمشق.

---

(١) ابن تيمية: نقض المنطق ص١٥٦.

ومن عجيب ما يحكى عنه أنه ماتت له قطة بحماة فدفنها فلما سكن دمشق بعث ونقل عظامها فى كيس ودفنها بقاسيون، قال: وكان أولاد العادل كلهم يكرهونه لما اشتهر عنه من علم الأوائل والمنطق، وكان يدخل على المعظم فلا يتحرك له، فقلت: قم له عوضًا عنى، فقال: ما يقبله قلبى، ومع هذا ولاه تدريس العزيزية، فلما مات أخرجه منها الأشرف، ونادى فى المدارس: من ذكر غير التفسير والفقه، أو تعرض لكلام الفلاسفة نفيته، فأقام السيف خاملاً فى بيته إلى أن مات، ودفن بتربته بقاسيون.

قلت: أخذ عنه القاضيان ابن سنى الدولة صدر الدين ومحيى الدين ابن الزكى، وكان القاضى تقى الدين سليمان بن حمزة يحكى عن شيخه ابن أبى عمر، قال: كنا نتردد إلى السيف، فشككنا هل يصلى أم لا؟ فنام، فعلمنا على رجله بالحبر فبقيت العلامة يومين مكانها، فعلمنا أنه ما توضأ، نسأل الله السلامة فى الدين.

وقد حدث السيف «بالغريب» لأبى عبيد عن أبى الفتح بن شاتيل، قال لى شيخنا ابن تيمية: يغلب على الآمدى الحيرة والوقف، حتى إنه أورد على نفسه سؤالاً فى تسلسل العلل، وزعم أنه لا يعرف عنه جوابًا، وبنى إثبات الصانع على ذلك، فلا يقرر فى كتبه إثبات الصانع، ولا حدوث العالم، ولا وحدانية الله، ولا النبوات، ولا شيئًا من الأصول الكبار.

قلت: هذا يدل على كمال ذهنه، إذ تقرير ذلك بالنظر لا ينهض، وإنما ينهض بالكتاب والسنة وبكل قد كان السيف غاية، ومعرفته بالمعقول نهاية، وكان الفضلاء يزدحمون فى حلقته، قال ابن خلكان: سمعت ابن عبد السلام يقول: ما سمعت من يلقى الدرس أحسن من السيف، كأنه يخطب، وكان يعظمه.

امتحان العلماء للآمدى:

قال الحافظ ابن حجر فى لسان الميزان (٣/ ١٣٤): قرأت بخط الحافظ الذهبى فى تاريخ الإسلام قَالَ: كَانَ شيخنا القاضى تقى الدين سليمان يحكى عن الشيخ شمس الدين ابن أبى العز أنه كَانَ يحضر مجالس سيف الدين الآمدى.

قَالَ: فأردنا أن نمتحنه، لأنهم رأوه يتخلف عن الصلاة، فلم يدروا أيصلى الرجل أم لا؟ فوضعنا الحبر فى رجله فمكث أكثر من يومين وهو باق لم يذهب! فعلموا أنه لا يتوضأ ولا يصلى ــ نسأل الله العافية ــ فماذا كَانَ يقول الآمدى؟ كَانَ يجلس ويقرر المسائل العظيمة فى علم الكلام وفى الأصول، وفى الجدل والمناظرة والبحث.

حتى إن العز بن عبد السلام يقول: ما تعلمت أصول البحث والمناظرة إلا من السيف الآمدى، وكان يحفظ المستصفى وغيره من كتب الأصول وهى من أعقد وأصعب العلوم، وله كتاب اسمه: الإحكام فى أصول الأحكام، فى الأصول فكان متبحرًا فى العقليات وفى الجدليات، وفى النظريات، وفى علم الكلام، وفى الأصول، وسيف الدين الآمدى، كَانَ إمام الأشعرية فى عصره، وإمام علماء الكلام فى عصره، وكان يقول العز بن عبد السلام: لو أن زنديقًا جَاءَ ليجادل الْمُسْلِمِينَ لوجب أن ينبرى الآمدى لمناظرته، لقوته فى الجدل وفى الحجج العقلية.

وهذا الرأى للإمام العز بن عبد السلام وهو أحد تلاميذ الآمدى، ولو كان يعلم أن فيه ما ادعاه البعض لأبانه، وعدم ذكر ابن عبد السلام لذلك يدحض هذا الزعم، وفيما يلى نورد جواب العلماء على تلك المزاعم:

جواب العلماء على اتهام الآمدى بترك الصلاة:

أجاب الشيخ عبد الرزاق عفيفى رحمه الله على ذلك فى تقديمه لكتاب الآمدى (الإحكام فى أصول الأحكام) فقال: قد يبقى الحبر أيامًا على العضو مع تتابع الوضوء والغسل، وخاصة عضو من لا يرى التدليك فرضًا فى الطهارة، بل يكتفى بإرسال الماء فى غسله ووضوئه.

رأى الآمدى:

كتب الآمدى فى كتابه (الإحكام فى أصول الأحكام) الصنف التاسع: فى الظاهر وتأويله، المسألة الثامنة:

«ومن أبعد التأويلات ما يقوله القائلون بوجوب غسل الرجلين فى الوضوء فى قوله تعالى: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ (المائدة: ٦) من

أن المراد به الغسل، وهو فى غاية البعد، لما فيه من ترك العمل بما اقتضاه ظاهر العطف من التشريك بين الرءوس والأرجل فى المسح من غير ضرورة»[١].

وهذا الذى ذهب إليه الآمدى فى كتابه هو رأى بعض المذاهب الإسلامية وإن كان هذا الرأى ضعيفًا أو مرجوحًا لدى بعض مذاهب أهل السنة فهو الرأى المعتمد والمعول عليه فى المذهب الجعفرى لدى الشيعة الإمامية.

وما كان للعلماء الذين قاموا بهذا الامتحان أن يلجأوا إلى ذلك لأن مسائل الإيمان مسائل قلبية لا تكتشف بمثل هذا العمل لقوله ﷺ: «الإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل».

ويجب على المسلمين أن يحسنوا الظن بإخوانهم وخاصة العلماء الأجلاء ومن ذلك قول الإمام جعفر الصادق: التمس لأخيك سبعين عذرًا فإن لم تجد فقل لعل له عذرًا لا أعلمه[٢].

شيوخه: تتلمذ وتلقى العلم على يد جماعة من كبار الأئمة والعلماء نذكر منهم:

١- عمار الآمدى.
٢- محمد الصفار.
٣- ابن عبيدة.
٤- أبو الفتح بن المنى.
٥- أبو الفتح بن شاتيل.
٦- ابن فضلان.
٧- المجير البغدادى.
٨- شهاب الدين السهروردى.

---

(١) الإحكام فى أصول الأحكام للآمدى جـ٤ ص٧٧/ ٧٩.
(٢) تحفة الأكياس فى حسن الظن بالناس ـ تأليف على بن محمد الشهير بالمصرى ـ تحقيق أ. د أحمد السايح والمستشار توفيق على وهبه ـ طبع ونشر مكتبة الثقافة الإسلامية ٢٠٠٦.

تلاميذه: لقد تلقى العلم على يديه جماعة من أجلة العلماء ذوى المكانة العلمية المرموقة منهم:

١- الملك المنصور صاحب حماه.
٢- العز بن عبد السلام.
٣- ابن أبى أصيبعة.
٤- الدخوار الطبيب (مهذب الدين عبد الرحيم بن على).
٥- أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم ويكنى بأبى القاسم محمد).
٦- ابن سنى.
٧- القاضى ابن الزكى.
٨- ابن أبى عمر.
٩- صفى الدين المراغى.
١٠- العماد بن السلمانى.
١١- الأديب فخر القضاة أبو الفتح نصر الله بن هبة الله بن عبد الباقى.
١٢- ابن جماعة.

كتبه: ألف الآمدى فى كثير من فروع العلم والمعرفة فقد ألف فى الفلسفة والمنطق ثمانية كتب، وسبعة فى الجدل والخلاف، وخمسة فى علم الكلام وأربعة فى أصول الفقه، نبينها فيما يلى:

أولاً: فى الفلسفة والمنطق:

١- رموز الكنوز.
٢- دقائق الحقائق.
٣- لباب الألباب.
٤- الغرائب وكشف العجائب فى الافترانات الشرطية.
٥- النور الباهر فى الحكم الزواهر.
٦- كشف التمويهات على الإشارات والتنبيهات وهو شرح لكتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا.

obeikandl.com

٧- المبين فى شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين.
٨- فرائد القلائد.

ثانيًا: فى الخلاف والجدل:

١- شرح كتاب الجدل للشريف الجرجانى.
٢- غاية الأمل فى علم الجدل.
٣- المآخذ الجلية فى المآخذات الجدلية.
٤- دليل متحد الائتلاف وجار فى جميع مسائل الخلاف.
٥- التعليقة الكبرى.
٦- التعليقة الصغرى.
٧- الترجيحات فى الخلاف.

ثالثًا: علم الكلام:

١- خلاصة الابريز تذكرة الملك العزيز.
٢- غاية المرام فى علم الكلام.
٣- أبكار الأفكار.
٤- منائح القرائح.
٥- المآخذ على المطالب العالية للرازى.

رابعًا: علم أصول الفقه:

١- منتهى السالك فى رتب المسالك.
٢- المآخذ على المحصول (نقد لكتاب المحصول للرازى).
٣- الإحكام فى أصول الأحكام.
٤- منتهى السول فى علم الأصول (وهو مختصر لكتابه الإحكام فى أصول الأحكام).

obeikandl.com

وبعض مؤلفات الآمدى مفقودة حتى الآن والموجود منها ثمانية كتب بعضها مطبوع والبعض الآخر ما زال مخطوطًا وهى[1]:

١- أبكار الأفكار

٢- غاية المرام.

٣- دقائق الحقائق

٤- الإحكام فى أصول الأحكام.

٥- منتهى السول فى علم الأصول.

٦- كشف التمويهات على الإشارات والتنبيهات.

٧- المآخذ على المطالب العالية للرازى.

٨- المبين فى شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين.

(١) عقيدة سيف الدين الآمدى فى الله وصفاته دراسة ونقد على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة للدكتورة إحسان عبد الغفار عبد الله مرزا رسالة دكتوراة من جامعة أم القرى إشراف الاستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح ص١٢٠.

obeikandl.com

صورة « اللوحة الأخيرة » من الأصل

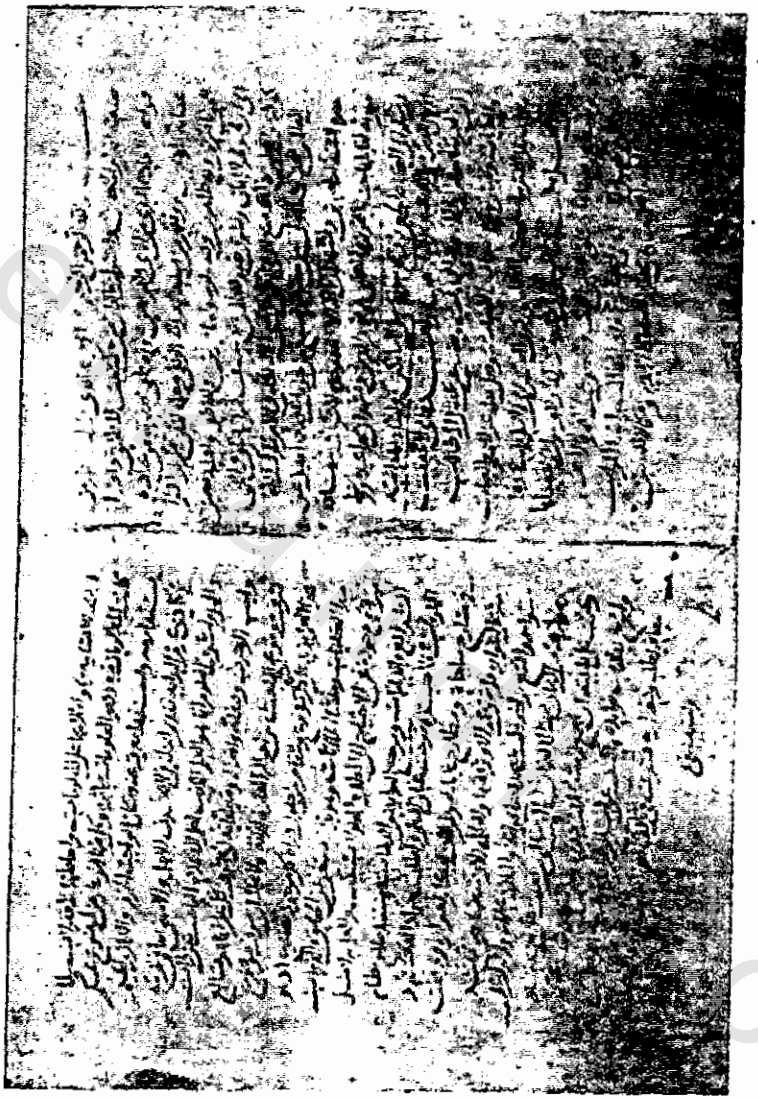

صورة « لوحة المسئلة » من الأصل

«كتاب فيه

غاية المرام فى علم الكلام

تأليف الشيخ الفقيه الإمام العالم سيف المناظرين ولسان المتكلمين أبى الحسن على بن أبى على الآمدى، ثبت الله سعادته، وصان عن الغير مهجته.

القانون الأول: فى إثبات الواجب بذاته.

القانون الثانى: فى إثبات الصفات ـــ فيه قاعدتان:

الأولى: فى النظر فى الصفات النفسية.

الثانية: فى إثباتها ـــ مطلب فى إثبات صفة الإرادة.

مطلب فى إثبات صفة العلم.

مطلب فى إثبات صفة القدرة.

مطلب فى إثبات صفة الكلام.

مطلب فى إثبات صفة الإدراكات

القانون الثالث: فى وحدانية البارى.

القانون الرابع: فى إبطال التشبيه وما يجوز عليه ـــ تعالى ـــ وما لا يجوز.

القانون الخامس: فى أفعال واجب الوجود ـــ فيه مطلبان:

مطلب نفى الغرض.

مطلب فى حدث وقطع تسلسل الكائنات.

القانون السادس: فى المعاد[1].

---

(١) هذه هى الصفحة الأولى من المخطوطة كما وردت بالأصل، وفى الركن الأعلى من اليمين توجد كلمات أمكن أن أتبين منها.